

تأريخ الصفر أو التقويم العجمي بالأندلس .

بقلم: الحسين اليعقوبي ،
كلية الآداب بمنوبة

[إلى روح الأستاذ الشاذلي بويحيى ،
فقيه كلية الآداب بتونس، رحمه الله]

يبدل تقويم الزمن عادة على حضارة متميّزة . وقد اهتمت الحضارة الإسلامية ،
شأنها شأن الحضارات السابقة : المصرية و اليونانية والفارسية والرومانية ، بهذه المسألة (1) . فاعتمدت تقويمها بنت عليه خصوصيتها وحققت به غيريتها : وهو التقويم الهجري (2) . ذكر الطبري أن السنة العربية القديمة كانت قمرية شمسية ، وكانت تعدل بالنسيء أو الكبس ، فتدور مع سنة الشمس . وكان القلمس (3) ، أو رجل من كنانة أ هو متولي الكبس ، غير أن الإسلام منع النسيء لأنهم يجرونه على شكل يستيحبون فيه القتال في الأشهر الحرم . وفي ذلك يقول الشاعر : (الطويل)
لنا ناسٌ نمشون نحت لوائه يحل إذا شاء الشهور ويحرم . (4)
غير أن تحقيق الغيرية لم يمنعها من التفتح على تقاويم الشعوب الأخرى والاعتماد عليها استجابة للصلات القائمة معها أو لضرورة عملية يقتضيها الواقع اليومي (5) . وذلك لأن دورة السنة الهجرية لا تبقي الفصول في أوانها فكان على الراصد القديم أن يوافق بين الشهور القمرية في التقويم الهجري والشهور الشمسية في التقاويم الأخرى كي تبقى

- (1) انظر مادة (Calendrier) في معجم لاروس الكبير (Grand Larousse = G.L) ج 1 ، ص 724-725 ، وفي دائرة المعارف الكونية (Encyclopédie Universalis = E.U) ج 4 ص 779-780 .
- (2) يبدأ من الهجرة وذلك قبل وقت قدوم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة وأمره بالتاريخ . وهو ما يوافق سنة 622 ميلادية .
- (3) قد يكون عثمان بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .
- (4) رواه عن الطبري أنيس فريحة في كتابه : أسماء الأشهر والعدد والأيام وتفسير معانيها . مطبعة جروس برس ط 1 لبنان 1988 ، ولم نجد في تاريخ الطبري ولا في اللسان في مادتي " نسا " و " كبس " .
- (5) مثل حساب الأنواء أو استخلاص الحجاج أو الخروج في الصوائف أو الاستعداد لفتح الأرض أو للصيد وحفظ الصحة بالنسبة إلى الأشخاص (الاستحمام ، التغذية ، الفصد ، الحجامة ، الوطء . إلخ) .

الفصول في أوانها بالنسبة إلى دورة الشمس حول الأرض . ولعل هذا هو الباعث على تأليف كتاب " الآثار الباقية من القرون الخالية " لليبرونسي (ت 440 / 1048) (6) وكتب توقيفات السنين الهجرية مع السنين القبطية أو المسيحية أو العبرية قديما وحديثا (7) أو ما يسمى بجداول المقابلات (8) .

ويلاحظ في بعض القبريات (شواهد القبور) أنه قد يكتفى بالتوفيق بين الشهور (9) ، نادرا ما يقع التوفيق بين الشهور والسنين (10) . غير أن الأمر قد يختلف في بعض

6) انظر دائرة المعارف الإسلامية الجديدة (Encyclopédie de l'Islam = E.I.2) ج 1 ، ص 1273 - 1275 .

7) نذكر منها بعد كتاب البيروني على سبيل المثال لا الحصر :

- تقويم التواريخ لحاجي خليفة (1068 / 1657) .

- التوقيفات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية ، وضعه اللواء محمود مختار باشا عام 1884/1313 ، ويبدأ من السنة الأولى للهجرة وينتهي سنة 1500 هـ .

- التقويم الإداري التركي .

8) نذكر منها أيضا :

- الجداول التي كانت تنشرها تباعا جريدة النهضة الخيرية بتونس (ق 19)

- جدول محمد بن الحوجة (... Concordances) . تونس ، 1897 .

- جدول كاتينوز (1926 Concordances... Caténoz) .

- أطلس تاريخ الإسلام = (Atlas of Islam History, Princeton, 1952)

- وجلول المنجد في اللغة والأعلام ، مادة (سنة) .

9) : انظر مثالا على ذلك القبرية (أي الشاهد أو الصم) الذي ذكره مصطفى سليمان زيس في كتابه (Corpus

des Inscriptions Arabes de Tunisie ; Tunis 1955) ج 1 ص 55 . وما لا شك فيه أن تقوينا ما كان

معتمدا في تونس إلى جانب التقويم الهجري ، لكن لا نستطيع الجزم إن كان التقويم اليولياني (Calendrier julien)

أو التقويم الديولسياني (Ere Diolitienne) الذي كان - حسب ما يبدو - متداولاً بين بقايا الروم الأفارقة

في تونس في القرن 11/5 . وقد اقتصر منه في هذه القبرية بالذات على ذكر الموافقة مع الشهر (ايليو) غير أن أسماء

الشهور بين التقويمين واحدة . أما اعتماد التوفيق بالسنوات فلم يثبت لا في قبريات المسلمين ولا في قبريات النصارى في ذلك

التاريخ . لذا فإن احتمال زيس في الهامش عدد 77 مكرر من المرجع المذكور أعلاه بنفس الصفحة ، يبقى محل نظر . لكن ما

ثبت في قبريات الدولة المرادية بتونس يدل على وجود تقويمين في بعض القبريات ، لكننا لم نستطع تحليل فارق ثلاث عشرين

يوما بين ما هو مذكور على القبرية وما يمكن أن يوافق في جداول التوقيفات . انظر حول هذه المسألة أبحاث أحمد السعداوي في

قبريات مدينة تونس ضمن (منشورات التميمي بزغوان ، تونس 1998) .

10) انظر ، في خصوص التوفيق بين التقويم للبيلاي والتقويم الهجري عند الروم الأفارقة (لافارق) في القرن الخامس

الهجري ، مقال عمار المحجوبي :

Nouveau Témoignage Epigraphique sur La Communauté Chrétienne de

Kairouan au V/XI ; ds. Africa ; n1 ; 1966 ; 87

كتب التراث (11) ، فمنها ما يحرص أحيانا على إجراء الموافقة بين أكثر من تقويم مثل ما فعل ابن حيّان (ت 1076/469) في كتاب "المقتبس في تاريخ الأندلس" (12) . فقد كان يؤرخ الحدث بالتقويم الهجري ويذكر أحيانا تقويم ذي القرنين (الإسكندر) ، من وضع سوزوجين (Sosogène) الإسكندري ، والتقويم العجمي والتقويم الميلادي وأحيانا التقويم الفارسي (13) .

ومن دواعي الاهتمام بهذه التوقيفات هو تفريق ابن حيّان بين التقويم الميلادي والتقويم العجمي الذي يميّز به عجم الأندلس حيث يقول « وفيها 11 أي سنة 235 [سيلان عظيم] بنهر قرطبة في شهر رجب القمري الموافق لشهر نينر (كذا) الشمسي رأس سنة العجم بالأندلس ، غدا في أمهات السيول » (14) . وهذا التقويم العجمي هو المشار إليه أحيانا في كتب التاريخ والأدب بالأندلس بـ "تاريخ الصفر" . ويذكره ابن حيّان الأندلسي في "المقتبس" مرة بتقويم "العجم" ومرة بـ "تاريخ الصفر" . فيقول نقلا عن الرازي : « برز الخليفة الناصر لدين الله لغزاته هذه يوم الخميس لثمان خلون من شهر رمضان من هذه السنة [أي سنة 301 هـ] وهو اليوم السابع من شهر أبريل العجمي سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة لتاريخ الصفر ولسنة الف ومانتين وخمس وعشرين سنة لذي القرنين » (15) .

وقد علّق المحقق على هذه الفقرة بقوله : " إن الإسبان كانوا يؤرخون في الأندلس بناء على تاريخ الصفر . ويبدأ تاريخ الصفر أول يناير عام 38 قبل الميلاد ، ولهذا فإن 301 هجرية تتوافق مع سنة 952 ميلادية وليس مع سنة 752 " ، وهذا خطأ من الناسخ " . (16) وحسب المحقق فإن سنة 301 هـ توافق سنة 952 في تاريخ الصفر وتوافق حينئذ سنة 913 أو 914 في التقويم الميلادي . كما أن سنة 235 هـ المذكورة أعلاه توافق سنة 849 في التقويم الميلادي وسنة 887 في تقويم الصفر المشار إليه بعبارة " رأس سنة العجم بالأندلس " .

وقد علّق المقرئ بداية اعتماد هذا التقويم بقوله : « ذكر ابن حيّان والرازي أن 1955 / 344 (17) والنجاري (ت 1188/584) أن أكتيبيان (Octavian) ثاني قيصرية الروم ... ملك أكثر الدنيا وصفه نهر رومية بالصفر (النحاس) ، فأرخت الروم من ذلك العهد ، وكان قبل ميلاد المسيح ثمان وثلاثين سنة » (18) . أما الدكتور أمين توفيق الطيبي فقد حدّد مدّة تداول هذا التقويم بقوله : « إن

11 (تجدر الإشارة في هذا المضمار إلى ما نجده في بعض كتب المشاركة من اهتمام بالتقويم القبطي خاصة عند المقرئ وابن إياس في " بدائع الزهور " ، والقلقشندي في " صبح الأعشى في صناعة الإنشاء " .

12 (ابن حيّان "المقتبس" تحقيق عبد الرحمان علي حجي ، بيروت 1965

13 (نفس المرجع ، ص 333 .

14 (ابن حيّان "المقتبس" قطعة من تحقيق عبد الرحمان علي حجي ، ص 146 ، القاهرة 1971 .

15 (نفس المرجع ط بيروت ، هامش ص 85 .

16 (: وهذا معناه أن هذا التقويم هو غير التقويم السائد في بلاد اللاتين من وضع دينس الصغير (Le petit

Denis) سنة 532 ق. م . والمعروف بالتقويم الديولسياني (Ere Diolittienne) . انظر (E.U.) ج

4 ص 779 780 .

17 (اهتم ثلاثة من آل الرازي بتاريخ الأندلس ، وهم على التوالي :

- الرازي (محمد) ت 273 هـ . - والرازي (أحمد) ت 324 هـ . - والرازي (عيسى) ت 344 هـ . وقد رجّحنا الثالث منهم .

18 (المقرئ : نفع الطب : ج 1 ص 481 . تحقيق إ. عباس ، بيروت 1968 .

ما يعرف بنظام التاريخ الإسباني (l'EreEspagnole) (19) - تاريخ الصفر - ذاع استعماله في إسبانيا المسيحية منذ القرن الخامس الميلادي حتى القرن الخامس عشر الميلادي ، وكانت بدايته اليوم الأول من شهر يناير عام 38 ق.م. ويشار إليه في المصادر العربية الأندلسية دون المشرقية « (20) .

ويبدو اعتماد هذا التقويم مثيرا لكثير من الإشكالات التاريخية .

(1) التسمية : إن لفظ الأصفر يطلق على الذهب ، والصفر هي الدنانير منه ، وتطلق هذه التسمية في الأصل على النحاس كما في قول أبي فراس الحمداني (طويل) (21) :
ولو سدّ غيوري ما سددت أكتفوا به وما كان يغلو التبر لو نغق الصفر .
ومنه اشتق اسم الصقار وهو صانع أواني النحاس ، وسوق الصقارين هو ما يعرف عندنا اليوم بسوق النحاس . وهكذا قد لا تبدو للتسمية ، من هذه الزاوية ، علاقة وطيدة بحادثة تصفيح النهر بالصقار المشار إليها في الرواية السابقة وإن كانت لا تنفيها .

ولا تبدو للتسمية أيضا علاقة بالخَلقة أو المرض لأنّ الزعم الشائع هو أنّ حبشياً كان غلب على بلاد الروم فنكح فيهم فولد له أولاد يخالط بياضهم صفرة من سواده فازدادوا بذلك حسنا (22) .

وإذا كانت هذه الرواية نحاول تذليل الغوارق بين الأجناس بجعل جنس الروم الصفر خليطا من الجنس الأسود المنحدر من (حام) والجنس الأبيض المنحدر من (سام) وأنّ من فضائله حصول الحسن الزائد (23) ، فإن أهل الكتاب يباعدون بين ذلك في محاولة للتمييز بين ذرية إسماعيل وذرية إسحاق فيزعمون أنّ الروم من وكّد الأصفر حفيد العيص (24) (Esau) بن سحاق بن إبراهيم ، زوج رفقة (Rebecca) ، فعرفوا بذلك .

(2) وقد شاعت هذه التسمية عند العرب فكانوا يسمّون النصارى من ملوك اليونان ملوك بني الأصفر (25) وإذا تحدثوا عن النساء قالوا : بنات الأصفر وإذا وصفوا قالوا كانت لفلان جارية صفراء (26) .

ومن أمثلة ذلك في مقام التعظيم قول عدي بن زيد : (خفيف)

أين كسرى كسرى الملوك أنو ش وان ، أم أين قبله سابور ؟

(19) : صرغنا استعمال هذا الاصطلاح اعتمادا على مقال (E.U.) ج 4 ص 779 - 780 . ومقال فيشر : (Fisher A. : Die Spanische Äre , Z.D.M.G. , 1918, LVII, 263-7 .)

(20) : الطيبي أمين توفيق : " لسان الدين بن الخطيب مؤرخ ثبت لفترة ملوك الطوائف ، انظر : مجلة كلية الآداب بطنان ، العدد 2 ، 1987 ، ص 206 .

(21) : الديوان ، ط . دار صادر ، ، ص 12 .

(22) : أبو تمام " الديوان " ص 79 (الشرح) ، ط . بيروت بدون تاريخ .

(23) : انظر دلالة الأصفر على الحسن والجمال في الشعر الجاهلي .

(24) : الأصفر هو حفيد عيسو وترسم أيضا عيسو . انظر : المنجد في اللغة والأعلام ص 369 ط 1960 .

(25) : د . م . الإسلامية 2 (E.I. 2) ج 1 ، ص 709 .

(26) : ابن رشد : " الفتاوى " ج 1 ، ص 167 (وسئل في امرأة كانت لها خادم صفراء) . دار الغرب الإسلامي ، بيروت

وبنو الأصغر الكرام 'ملوك آل روم لم يبق منهم مذكور (27)

أما في مقام التهجين فقد قال فيهم أبو زمام يمدح المعتصم في فتح عمورية ،
[البسيط]

71. أبقت بني الأصغر الأمراض كاسمهم صفر الوجوه وجلت أوجه العرب. (28)

وضرب الشاعر فيهم المثل بالحق فقال : (طويل)

بنو الأصغر اختارت على العرب أسرة بجفنة فابتاعت حمارا بأعوجا . (29)

وعموما فهذه التسمية اطلقت على سلالة الفلافيين (Les Flaviens) التي حكمت
الإمبراطورية الرومانية من سنة 69م إلى سنة 96م وعلى ملوك الروم ثم على قيصرية
روسيا في زمن متأخر (30) . ثم شاع إطلاقها عند المؤرخين العرب على سكان أوروبا
وملوكتها عامة وسكان إسبانيا وملوكها خاصة (31) .

وفي هذا السياق التاريخي تعرض كل من الرازي وابن حيّان والحجاري وابن الخطيب
(ت 1374/776) والمقري (ت 1631/1041) إلى المصطلح في إطار الموافقات . ويلاحظ
القارئ الارتباك الحاصل عند محققين "المقتبس" لابن حيّان كلما تعلق الأمر بتوفيق
التقاويم الأخرى مع التقويم الهجري . وقد يعود ذلك إما لكثرة ما يعمد إليه ابن حيّان من
موافقات أو لاضطراب في رواية التاريخ الموافق أو إلى أمر يتعلق بجهل ضبط "التعديل"
الحاصل في التقويم الميلادي .

(3) ذكر الدكتور الطيبي أن استعمال تاريخ الصفر قد ذاع في إسبانيا
المسيحية منذ القرن الخامس الميلادي حتى القرن الخامس عشر منه . وتضيف دوائر المعارف
الكونية (Encyclopédie Universalis) أن الكنيسة الأرثوذكسية حافظت على استعماله
حتى بعد هذا التاريخ رغم تأخره بفارق ثلاثة عشر يوما عن التقويم الفريغوري المعتمد حاليا
منذ سنة 1582م (32) . لكن الذي نلاحظه هو أن هناك فقرات كثيرة نص فيها ابن حيّان على
أنه نقلها عن الرازي من كتابه الضائع عن "تاريخ ملوك الأندلس" . ومن المعلوم أن الرازي قد
عاش قبل القرن الخامس إذ قد توفي حوالي منتصف القرن الرابع أي سنة 955/344 . وإذا
أضفنا إلى ذلك الإشارة الواردة حول "السيليين العظميين لنهر قرطبة" سنة 235 هـ "الموافق
لشهر ينير الشمسي رأس سنة العجم بالأندلس" فإن الموافقة المشار إليها تعود إلى
منتصف القرن الثالث أي إلى ما قبل الرازي بقرن . وهكذا يبدو أن استعمال تاريخ الصفر كان
ذائعا في إسبانيا الإسلامية منذ القرون الأولى من فتح الأندلس .

وهذا يدل ، إما على أن أجناد الشام قد نقلوا معهم إلى الأندلس عادة استعمال
هذا التقويم من رهبان الروم هناك . فقد ذكر ابن منظور في اللسان : أن « عام الكبيس
في حساب أهل الشام عن أهل الروم » في كل أربع سنين يزيدون في شهر شباط يوما

(27) : الإصحاني : الأغاني : ج 2 ص 139 ، وج 6 ، 354-355 . طبعة دار الكتب ، القاهرة 1963 .

(28) : أبو زمام : نفس المرجع ، ص 79 .

(29) : نفس المرجع .

(30) : د . م . الإسلامية 2 (E. I. 2) ج 1 ، ص 709 .

(31) : ابن الخطيب : أعمال الأعمال ص 323 ، والمقري : "الفخ" ج 1 ص 481 .

(32) : لاروس الكبير (G. L.) ج 1 ، ص 516-518 ومقال د . المعارف الكونية (E. U.) ج 4 ص 779

فيجعلونه تسعة وعشرين يوماً .» (33) فتيسر بذلك شيوعه بين العرب . وإما أن ابن حيّان قد اعتمد على كتب تاريخ المؤرخين أندلسيين يعرفون اللاتينية وينقلون مباشرة من مصادرها مثل عريب بن سعد (ت 369/ 979) وهو قرطبي من أصل مسيحي أو مولدين مثل ابن القوطية (ت 367/ 977) (34) .

لكن الأرجح أن ابن حيّان نفسه كان يعرف اللاتينية وكان ينقل من مصادر المؤرخين اللاتين مباشرة ، وكانوا غالبا من رجال الدين . وهذا أمر سائغ إذا اعتبرنا أن اللاتينية كانت - على رأي السيد عبد العزيز سالم - شائعة بين عرب الأندلس و « أن اختلاط عرب الأندلس بالعجم أو المستعربة كان سببا في شيوع لهجة أعجميّة مشتقة من اللاتينية الدارجة المعروفة بالرومانسية » (35) .

ومثل هذا يؤكدّه غوسيا غومس أثناء حديثه عن الموشحات فيقول « لقد كانت قرطبة بلدا نصف عربيّ يتحدث أهلها العربية وعجمة أهل الأندلس ويختلط فيه رنين الأجراس بأذان المؤذنين » (36) .

ويقول ابن حزم (455/ 1063) في نفس السياق : أن معرفة اللغة اللاتينية والتخاطب بها كانا شائعين بين الأندلسيين ، وكان يتعجب من الذي لا يجيد الكلام بها كيني بلّي . يقول : « ودار بلّي بالأندلس في الموضوع المعروف باسمهم بشمال قرطبة ، وهم هنالك إلى اليوم على أنسابهم ، ولا يحسنون الكلام باللاتينية ، لكن بالعربية فقط نساؤهم ورجالهم » (37) .

ومما يذكر أيضا في هذا السياق ما أورده أحمد مختار العبّادي في خصوص معرفة ابن الخطيب للغة القشتالية في قوله : « ولا ندري إن كان ابن الخطيب نفسه كان يعرف اللغة القشتالية أم لا ، ففي حويلات ملوك قشتالة التي كتبها القائد الإسباني لوباث دي أيبالة (Lopez de Ayala) وهو معاصر لابن الخطيب ، نجد مجموعة من الرسائل القشتالية موجّهة من ابن الخطيب إلى ملك قشتالة في ذلك الوقت بطرس القاسي (Pedro el cruel) (38) » . ولم يقدنا العبّادي عن التاريخ الذي نجمه تلك الرسائل ، أو رسائل الدولة الرُسميّة الصادرة عن ديوان الترجمة بقصر الحمراء إلى ملوك الدول المجاورة وإلى تاج أراغون وتاج قشتالة بالخصوص لأنه ثابت أنهما كانا يؤرخان بالتقويم العجمي المسمّى تاريخ الصفر عند مؤرخي الأندلس .

واعتبارا لكل ما سبق فإن تاريخ الصفر كان معروفا في الأندلس ومعتمدا في الموافقات مع التقويم الهجري ، وأن حملة الإسلام كانوا لا يتورعون عن الجمع بين قيم الإسلام وقيم الأمم المفتوحة في غير ما حرج ولا شعور بتزعزع الهوية أو نقص في

33 : (لسان العرب : مادة " كبس " .

34 : السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ج 2 ص 203 ، ط 1 بيروت 1972 .

35 : السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ج 2 ص 184 .

36 : غوسيا غومس : الشعر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة 1956 ، ص 35 .

37 : ابن حزم : " جهمرة أنساب العرب " ص 433 . ط . دار الكتب القاهرة 1948 .

38 : ابن الخطيب : كتاب " معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار " ، ضمن " مشاهدات ابن الخطيب في بلاد المغرب الأندلس " ، نشر وتحقيق أحمد مختار العبّادي ، ص 99 الهامش رقم 2 ، الإسكندرية 1958 .

الاعتبار (39) . وقد كان ذلك ساري الاستعمال لا في كتب التاريخ فقط ، وإنما أيضا في الوثائق الرسمية ، لأنني أذكر أنني قرأت مقالا في التوفيق بين التقويم المجري وتقويم الصفر يحاول فيه كاتبه تصحيح تاريخ وثائق متبادلة بين المملكة الحفصية والممالك الإسبانية ومنها مملكة قشتالة . وقد نبّه صاحب المقال إلي وجوب حذف ثمان وثلاثين سنة من هذا التقويم للحصول على التقويم الميلادي المصطلح عليه بالتقويم الفريغوري (Ere Grégienne) .

وعسى أن أوفق في العثور مجدداً على هذا المقال والحصول على كتاب حوليات ملوك قشتالة للوبات دي آيالة (Lopez de Ayala) (40) المتضمن لرسائل ابن الخطيب في نصّها القشتالي ، ومقال:ج. ليفي دلا فيدا في " تأريخ الصفر في إسبانيا الإسلامية " : (. G.Levi della Vida , "The Bronse Era " in Moslem Spain, Journal of the .) pp 183 - 190 (1943) 69 . American Oriental Society .المشار إليه في هامش مقال الدكتور توفيق الطيبي المنشور في عدد خاص بلسان الدين بن الخطيب ، وهو العدد 2 / 1987 من مجلة كلية الآداب بتطوان (41) ، حتى أزيد الأمر تدقيقا . وجزئ الله عنا ، البعثة التي أثبت الدكتور أمين توفيق الطيبي ، كل خير لأن اكتشافه للإشارة التي تضمنها "نسخ الطيب" للمقري حول هذه المسألة هو الذي أتاح لنا البحث في هذا الموضوع .

(39) : انظر : الصادق مرزوق : "متى يعود الاعتبار للتاريخ الهجري ؟" . جريدة الصباح (تونس) ، في 23 / 07 / 1993 .
(40) : (Lopez de Ayala : Cronicas de los Reyes de Castilla)
(41) : عنوان المقال : " لسان الدين بن الخطيب مؤرخ ثبت لفترة ملوك الطوائف : صص 185 - 208 .